وهم قد جحدوا ما جاء به رسول الله ﷺ ؛ لأنهم حرصوا على السلطة الزمنية فقط ، وكان من الواجب أن يؤمنوا بما جاءهم به ، لكن العناد هو الذى وقف بينهم وبين حقيقة اليقين وحقيقة الإيمان .

وأنت لا تستطيع أن تواجه المُعَاند بحجة أو بمنطق ، فهم يريدون أن يظل الضعفاء عبيداً ، وأن يكونوا مسيطرين على الخَلْق بجبروتهم ، والدين سيُسوِّى بين الناس جميعاً ، وهم يكرهون تلك المسألة .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بقضية كونية ، فيقول :

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

فأنت يا محمد لن تجعل كل الناس مؤمنين ؛ ولو حرصت على ذلك ، وكان ﷺ شديد الحرص على أن يؤمن قومه ، فهو منهم .

ويقول فيه الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ [1] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

لكنهم جحدوا ما جاءهم به ؛ وقد أحزنه ذلك الأمر . وفى الحرص نجد آية خاصة باليهود ؛ هؤلاء الذين دفعوا أهل مكة أن يسألوا الرسول ﷺ عن قصة يوسف ؛ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) العنت : المشقة . وأعنته : أوقعه فى العنت وشق عليه . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ .. ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة] أى : كلفكم الأمور الشاقة التى توقعكم فى العنت [القاموس القويم ٢/ ٣٩] .

وكان على أهل مكة أن يؤمنوا ما دام قد ثبت لهم بالبينات أنه رسول من الله .

وجاء قوله الحق :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يوسف]

جاء ذلك القولُ تسليةً من الحق سبحانه لرسوله ، وليؤكد له أن ذلك ليس حال أهل مكة فقط ، ولكن هذه هى طبيعة معظم الناس . لماذا ؟

لأن أغلبهم لا يُحسن قياس ما يعطيه له منهج الله فى الدنيا والآخرة ، والإنسان حين يُقبل على منهج الله ، يقيس الإقبال على هذا المنهج بما يُعطيه له فى الآخرة ؛ فلسوف يعلم أنه مهما أعطى لنفسه من مُتَع الدنيا فعُمْره فيها مَوْقُوت بالقَدْر الذى قدَّره له الله ، والحياة يمكن أن تنتهى عند أية لحظة .

والحق سبحانه حين خبأ عن الناس أعمارهم فى الدنيا ، لم يَكُنْ هذا الإخفاء إبهاماً كما يظن البعض ، وهذا الإبهام هو فى حقيقته عَيْن البيان ، فإشاعة حدوث الموت فى أى زمن يجعل الإنسان فى حالة ترقُّب .

ولذلك فميتات الفُجَاءة لها حكمة أن يعرف كل إنسان أن الموت لا سببَ له ، بل هو سبب فى حَدِّ ذاته ؛ سواء كان الموت فى حادثة أو بسبب مرض أو فجأة ، فالإنسان يتمتع فى الدنيا على حسب عمره المحدد الموقوت عند الله سبحانه ، أما فى الآخرة فإنه يتمتع على قدر إمدادات الخالق سبحانه .

والإنسان المؤمن يقيس استمتاعه في الآخرة بقدرة الله على العطاء ، وبإمكانات الحق لا إمكانات الخَلْق .

وهَبْ أن إنساناً معزولاً عن أمر الآخرة ، أي : أنه كافر بالآخرة وأخذها على أساس الدنيا فقط ، نقول له : انظر إلى ما يُطلب منك نهياً ؛ وما يُطلب منك أمراً ، ولا تجعله لذاتك فقط ، بل اجعله للمقابل لك من الملايين غيرك .

سوف تجد أن نواهي المنهج إن منعتْك عن شر تفعله بغيرك ؛ فقد منعتْ الغير أن يفعل بك الشر ، في هذا مصلحة لك بالمقاييس المادية التي لا دَخْل للدين بها .

ويجب أن نأخذ هذه المسألة في إطار قضية هي « دَرْء المفسدة مُقدّم على جَلْب المصلحة » .

وهَبْ أن إنساناً مُحباً لك أمسك بتفاحة وأراد أن يقذفها لك ، بينما يوجد آخر كاره لك ، ويحاول أن يقذفك في نفس اللحظة بحجر ، وأطلق الاثنان ما في أيديهما تجاهك ، هنا يجب أن تردّ الحجر قبل أن تلتقط التفاحة ، وهكذا يكون دَرْء المفسدة مُقدّماً على جَلْب المصلحة .

وعلى الإنسان أن يقيس ذلك في كل أمر من الأمور ؛ لأن كثيراً من أدوات الحضارات أو ابتكارات المدنية أو المخترعات العلمية قد تعطينا بعضاً من النفع ، ولكن يثبت أن لها ـ من بعد ذلك ـ الكثير من الضرر .

مثال هذا : هو اختراع مادة «د. د. ت» التي قتلت بعض الحشرات ، وقتلت معها الكثير من الطيور المفيدة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَقْفُ[(١)] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦) ﴾ [الإسراء]

وعليك أن تدرس أيَّ مُخْتَرع قبل استعماله ؛ لترى نفعه وضرره قبل أن تستعمله .

وقد رأينا مَنْ يُدخلون الكهرباء إلى بيوتهم ، يحاولون أن يرفعوا موقع « فِيَش » الكهرباء عن مستوى تناول الأطفال ؛ كي لا يضع طفل أصابعه في تلك الفتحات فتصعقهم الكهرباء ، ووجدنا بعضاً من المهندسين قد صَمَّموا أجهزة تفصل الكهرباء آلياً إنْ لمستْها يَدُ بشر .

وهذا هو دَرْء المفسدة المُقدَّم على جَلْب المنفعة ، وعلينا أن نحتاط لمثل هذه الأمور .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يوسف]

وهل قوله :

﴿ أَكْثَرُ النَّاسِ ..(١٠٣) ﴾ [يوسف]

نسبةٌ للذين لا يؤمنون ، يعني أن المؤمنين قلة ؟

---

(١) قفاه : يقفوه قفْواً : مشى خلفه أو تبعه . وأصله من القفا . وقوله : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦) ﴾ [الإسراء] أي : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ، ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل في الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ٢/١٢٨] .

نقـول : لا ؛ لأن « أكـثـر » قـد يقـابله « أقل » ، وقـد يـقـابله « الكثير » .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

وهكذا نجد أن كلمة « كثير » قد يقابلها أيضاً كلمة « كثير » .

وقد أوضح الحق سـبحانه لرسوله ﷺ أنه لو حـرص ما استطاع أن يجـعل أكثـر الناس مـؤمنين ، والحـرْص هو تعلُّق النفس وتعـبئـة مجهود للاحتفاظ بشيء نرى أنه يجلبَ لنا نفعاً أو يذهب بضُرٍّ ، وهو استمساك يتطلب جهداً .

ولذلك يوضح له الحق سـبحانه : أنت لن تهـدى مَنْ تحرص على هدايته .

ويقول سبحانه :

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ .. (٣٧) ﴾ [النحل]

ومن هذه الآية نستفيد أن كل رسول عليه أن يُوطِّن نفسه على أن الناس سيعقـدون مقارنات بين البدائل النفعية ؛ وسـيقعون فى أخطاء اخـتيـار غـير الـملائم لفـائدتهم على المـدى الطويل ؛ فـوطِّنْ نفـسك يا محمد على ذلك .

وإذا كنتَ يا رسـول الله قـد حـملتَ الـرسـالة وتسـألهم الإيمـان

لفائدتهم ، فأنت تفعل ذلك دون أجر ؛ رغم أنهم لو فطنوا إلى الأمر لكان يجب أن يقدروا أجراً لمن يهديهم سواء[1] السبيل ، لأن الأجر يُعْطَى لمن يقدم لك منفعة .

والإنسان حريص على أن يدفع الأجر لمن يُعينه على منفعة ؛ والمنفعة إما أن تكون موقوتة بزمن دنيوى ينتهى ، وإما أن تكون منفعة ممتدة إلى ما لا نهاية ؛ راحة فى الدنيا وسعادة فى الآخرة .

ويأتى القرآن بقول الرسل[2] :

﴿ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً .. (٩٠) ﴾ [الأنعام]

ولم يَقُلْ ذلك اثنان هما : إبراهيم عليه السلام ، وموسى عليه السلام .

وكان العقل يقول : كان يجب على الناس لو أنها تُقدِّر التقدير السليم ؛ أن تدفع أجراً للرسول الذى يُفسِّر لهم أحوال الكون ، ويُطمئنهم على مصيرهم بعد الموت ، ويشرح لهم منهج الحق ، ويكون لهم أُسْوة حسنة .

---

(١) سواء : تدل على معنى التوسط والتعادل . فسواء السبيل : وسطه . قال تعالى : ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) ﴾ [القصص] أى : وسط الطريق الموصِّل للخير . [القاموس القويم ١/٣٣٨] .

(٢) قالها نوح عليه السلام : [يونس : ٧٢] ، [هود : ٢٩] ، [الشعراء : ١٠٩] .
وقالها هود عليه السلام : [هود : ٥١] ، [الشعراء : ١٢٧] .
وقالها صالح عليه السلام : [الشعراء : ١٤٥] .
وقالها لوط عليه السلام : [الشعراء : ١٦٤] .
وقالها شعيب عليه السلام : [الشعراء : ١٨٠] .
وقالها محمد ﷺ رسول الله : [سبأ : ٤٧] .

ونحن نجد فى عالمنا المعاصر أن الأسرة تدفع الكثير للمدرس الخصوصى الذى يُلقِّن الابن مبادىء القراءة والكتابة ، فما بالنا بمَنْ يضىء البصر والبصيرة بالهداية ؟

ومقتضى الأمر أن الرسول ﷺ يقدم نفعاً أبدياً لمن يتبعه ، لكنه لم يطلب أجراً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) ﴾

وفى هذا القول الكريم ما يوضح أن النبى ﷺ لا يسأل قومه أجراً على هدايته لهم ؛ لأن أجره على الله وحده .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) ﴾ [الطور]

والحق سبحانه يقول على لسان رسوله فى موقع آخر :

﴿ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. (٤٧) ﴾ [سبأ]

وهو هنا يُعلى الأجر ، فبدلاً من أن يأخذ الأجر من محدود القدرة على الدَّفْع ، فهو يطلبها من الذى لا تُحَدّ قدرته فى إعطاء الأجر ؛ فكأن العمل الذى يقوم به لا يمكن أن يُجَازى عليه إلا من الله ؛ لأن العمل الذى يؤديه بمنهج الله ومن الله ، فلا يمكن إلا أن يكون الأجر عليه من أحد غير الله .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾ [يوسف]

والذكر يُطْلَق إطلاقات متعددة ، ومادة « ذال » و « كاف » و « راء » مأخوذة من الذاكرة . وعرفنا من قبل أن الإنسان له آلات استقبال هى الحواس الإنسانية ، وتنتقل المعلومات أو الخبرات منها إلى العمليات العقلية ، وتمرُّ تلك المعلومات ببؤرة الشعور ، لتُحفظ لفترة فى هذه البؤرة ، ثم تنتقل إلى حاشية الشعور ، إلى أن تستدعيها الأحداث ، فتعود مرة أخرى إلى بُؤْرة الشعور .

ولذلك أنت تقول حين تتذكر معلومة قديمة « لقد تذكرتها » ؛ كان المعلومة كانت موجودة فى مكان ما فى نفسك ؛ لكنها لم تكُنْ فى بؤرة الشعور . وحين جاءت عملية الاستدعاء ، فهى تنتقل من حاشية الشعور إلى بُؤْرة الشعور .

والتذكُّر هو : استدعاء المعلومة من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ..(٥)﴾ [إبراهيم]

أى : ذكِّرهم بما مَرَّ عليهم من أحداث أجراها الله ؛ وهى غير موجودة الآن فى بُؤْرة شعورهم . وسُمِّى القرآن ذكراً ؛ لأنه يُذكِّر كل مؤمن به بالله الذى تفضَّل علينا بالمنهج الذى تسير به حياتنا إلى خير الدنيا والآخرة .

فالذكر - إذن - يكون للعاقل معونة له ، وهو من ضمن رحمة الله بالخَلْق ، فلم يترك الخلقَ منشغلين بالنعمة عن مَنْ أنعمها عليهم ، فهذا الكون منظم بِدقَّة بديعة ، وفيه كل مُقوِّمات حياة البشر .

ومن فضل الله عليهم أنه أرسل الرسل مُذكِّرين لهم بهذا العطاء الربانى .

وكلمة « ذكر » تدل على أن الفطرة فى الإنسان كان يجب أن تظل واعية ذاكرة لله ، وقد قَدَّر الله غفلة الأحداث ، فجعل لهم الذكر كله فى القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

وإذا سمعتَ « كأين » افهم أن معناها كثير كثير كثير ؛ بما يفوق الحَصْر ، ومثل « كأين » كلمة « كم » ، والعَدُّ هو مظنة الحصر ، والشيء الذى فوق الحصر ؛ تنصرف عن عَدِّه ، ولا أحد يحصر رمال الصحراء مثلاً ، لكن كلاً منا يعُدُّ النقود التى يردُّها لنا البائع ، بعد أن يأخذ ثمن ما اشتريناه .

إذن : فالانصراف عن العَدِّ معناه أن الأمر الذى نريد أن نتوجه لعدِّه فوق الحصر ، ولا أحد يعُدُّ النجوم أو يحصيها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يُنبِّهنا إلى هذه القضية ، لإسباغ نعمه على خلقه ، ويقول :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ..(٣٤) ﴾ [إبراهيم]

و « إنْ » هى للأمر المشكوك فيه ، وأنتم لن تعدُّوا نعمة الله ؛ لأنها فوق الحصر ، والمعدود دائماً يكون مُكَرراً ، وذَكَر الحق هنا نعمة واحدة ، ولم يحددها ؛ لأن أىَّ نعمة تستقبلها من الله لو استقصيتها لوجدتَ فيها نِعَماً لا تُحصَر ولا تُعَدُّ .

إذن : فكلمة « كأين » تعنى « كم » ، وأنت تقول للولد الذى لم يستذكر دروسه : كم نصحتك ؟ وأنت لا تقولها إلا بعد أن يفيض بك الكيل .

وتأتى « كم » ويُراد بها تضخيم العدد ، لا منك أنت المتكلم ، ولكن ممَّنْ تُوجِّه إليه الكلام ، وكأنك تستأمنه على أنه لن ينطق إلا صِدْقاً ، أو كأنك استحضرتَ النصائح ، فوجدتها كثيرة جداً .

والسؤال عن الكمية إما أنْ يُلْقَى من المتكلم ، وإما أن يُطلب من المخاطب ؛ وطلبُه من المخاطب دليل على أنه سَيُقِرّ على نفسه ، والإقرار سيد الأدلة .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَأَيِّن (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فمعناها أن ما يأتى بعدها كثير .

وسبحانه القائل :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ[1] كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا[2] لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا[3] وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) ﴾

[آل عمران]

وهكذا نفهم أن (كأين) تعنى الكثير جداً ؛ الذى بلغ من الكثرة مبلغاً يُبرر لنا العذر أمام الغير إنْ لم نُحْصه .

والآيات هى جمع « آية » ؛ وهى الشىء العجيب ، الملْفت للنظر ، ويُقال : فلان آية فى الذكاء . أى : أن ذكاءه مَضْرب المثل ، كأمر عجيب يفوق ذكاء الآخرين .

ويُقال : فلان آية فى الشجاعة ؛ وهكذا .

ومعنى الشىء العجيب أنه هو الخارج عن المألوف ، ولا يُنسَى .

وقد نثر الحق سبحانه فى الكون آيات عجيبة ، ولكل منثور فى الكون حكمة . وتنقسم معنى الآيات إلى ثلاث :

الأول : هو الآيات الكونية التى تحدثنا عنها ، وهى عجائب ؛ وهى حُجَّة للمتأمل أن يؤمن بالله الذى أوجدها ؛ وهى تلفتُك إلى أن مَنْ خلقها لا بُدَّ أن تكون له منتهى الحكمة ومنتهى الدِّقة ، وهذه الآيات تلفتنا إلى صدق توحيد الله والعقيدة فيه .

---

(١) الرِّبِّيُّ : العالم التقى الصابر . قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ .. (١٤٦) ﴾ [آل عمران] والربى : مَنْ ربَّيته ، وهم هنا من ربَّاهم النبى فقاتلوا معه وناصروه . [القاموس القويم ١/٢٥١] .

(٢) الوهن : الضعف فى العمل والأمر . ورجل واهن فى الأمر والعمل ، وموهون فى العظم والبدن . [لسان العرب ـ مادة : وهن] .

(٣) استكان : خضع وذل . [لسان العرب ـ مادة : سكن] .

وقد نثر الحق سبحانه هذه الآيات فى الكون . وحينما أعلن الله بواسطة رسله أنه سبحانه الذى خلقها ، ولم يَقُلْ أحد غيره : « أنا الذى خلقت » فهذه المسألة ـ مسألة الخلق ـ تثبُت له سبحانه ، فهو الخالق وما سواه مخلوق، وهذه الآيات قد خُلقت من أجل هدف وغاية .

وفى سورة الروم نجد آيات تجمع أغلب آيات الكون ؛ فيقول الحق سبحانه :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ[1] (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) ﴾ [الروم]

كل هذه آيات تنبه الإنسان الموجود فى الكون أنه يتمتع فيه

---

(١) أظهر : دخل فى وقت الظهيرة . والظهيرة : وقت الظهر ، ويتسع إلى العصر ، قال تعالى : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ .. (٥٨) ﴾ [النور] أى : حين تستريحون فى منازلكم بعد صلاة الظهر عادة إلى العصر [القاموس القويم ١/٤١٨] .

طبقاً لنواميس عليا ؛ فيها سِرٌ بقاء حياته ؛ فيجب أن ينتبه إلى مَنْ أوجدها .

وبعد أن يتنبه إلى وجود واحد أعلى ؛ كان عليه أن يسأل : ماذا يريد منه هذا الخالق الأعلى ؟

هذه الآيات تفرض علينا عقلياً أن يوجد مَنْ يبلغنا مطلوبَ الواجد الأعلى ، وحينما يأتى رسول يقول لنا : إن مَنْ تبحثون عنه اسمه الله ؛ وهو قد بعثنى لأبلغكم بمطلوبه منكم أن تعبدوه ؛ فتتبعوا أوامره وتتجنبوا نواهيه .

والنوع الثانى من الآيات هى آيات إعجازية ، والمراد منها تثبيت دعوة الرسل ، فكان ولا بُدَّ أن يأتى كل رسول ومعه آية ؛ لتثبت صِدْق بلاغه عن الله ؛ لأن كل رسول هو من البشر ، ولا بد له من آيةٍ تخرق النواميس ، وهى المعجزات التى جاءت مع الرسل .

وهناك آيات حُكْمية ، وهى **النوع الثالث** ، وهى الفواصل التى تحمل جُملاً ، فيها أحكام القرآن الكريم ؛ وهو المنهج الخاتم .

وهى آياتٌ عجيبة أيضاً ؛ لأنك لا تجد حُكْماً من أحكام الدين إلا ويمسُّ منطقياً حاجةً من حاجات النفس الإنسانية ، والبشر وإنْ كفروا سيُضطرون إلى كثير من القضايا التى كانوا ينكرونها ، ولكن لا حَلَّ للمشكلات التى يواجهونها ، ولا تُحَلّ إلا بها .

والمثل الواضح هو الطلاق ، وهم قد عَابُوا مجيء الإسلام به ؛ وقالوا : إن مثل هذا الحل للعلاقة بين الرجل والمرأة قد يحمل الكثير

من القسـوة على الأسرة ، لكنهم لجـأوا إليه بعـد أن عضَّتـهم أحداث الحياة ، وهكذا اهتدى العقل البشرى إلى حكم كان يناقضه .

وكذلك أمر الربا الذى يحاولون الآن وَضْع نظام ليتحللوا من الربا كله ، ويقـولون : لا شىء يمنع العـقل البشـرى من الـتوصُّل إلى ما يفيد .

وهكذا نجـد الآيات الكونية هى عـجـائب بكل المقـاييس ، والآيات المصـاحبة للرسل هى معـجزات خَرَقتْ النواميس ، وآياتُ القـرآن بما فـيـهـا من أحكام تَقِى الإنسـان مـن الداء قـبل أن يقع ، وتُجـبـرهم معضلات الحياة أن يعودوا إلى أحكام القرآن ليأخذوا بها .

وهم يُعرضون عن كل الآيات ، يُعـرضون عن آيات الكون التى إنْ دَقَّقوا فيها لَـثبتَ لهم وجود إله خالق ؛ ولأخذوا عطاءً من عطاءات الله ليسـرى تربية وتنميـة ، وكل الاكتشـافات الحديثة إنمـا جاءت نتيـجةً لملاحظات ظاهرةٍ ما فى الكون .

وسبق أن ضـربتُ المثل بالرجل الذى جلس ليطهـو فى قِدْر ؛ ثم رأى غطاء القِدْر يعلو ؛ فـفكَّر وتساءل : لماذا يـعلو غطاء القِدر ؟ ولم يُعـرِض الرجل عن تأمُّل ذلك ، واسـتنبـاط حقـيـقة تحـوُّل المـاء إلى بخـار ؛ واستطاع عـن طريق ذلك أن يكتـشف أن الماء حـين يتـبخـر يتمدد ؛ ويحتاج إلى حَيِّز أكبر من الحَيِّز الذى كان فيه قبل التمدد .

وكـان هذا التأمُّل وراء اكـتـشاف طاقـة البـخار التـى عملتْ بهـا البواخر والقطارات ، وبـدأ عصر سُمِّى « عصـر البخار » . وهذا الذى رأى طَفْـوَ طبقٍ على سطح الماء وتـأمّل تلك الظاهرة ، ووضـع قاعـدة باسمه ، وهى « قاعدة أرشميدس » .

وهكذا نجد أن أى إنسان يتأمل الكون بدقّة سيجد فى ظواهره ما يفيده فى الدنيا ؛ كما استفاد العالم من تأملات أرشميدس وغيره ؛ ممَّنْ قدَّموا تأملاتهم كملاحظات ، تتبعها العلماء ليصلوا إلى اختراعات تفيد البشرية .

وهكذا نرى أن الحق سبحانه لا يضنُّ على الكافر بما يفيد العالم ما دام يتأمل ظواهر الكون ، ويستنبط منها ما يفيد البشرية .

إذن : فقوله تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا .. (١٠٥) ﴾ [يوسف]

إنْ أردتها وسيلة للإيمان بإله ؛ فهى تقودك إلى الإيمان ؛ وإنْ أردتها لفائدة الدنيا فالحقُّ لم يبخل على كافر بأن يُعطيه نتيجة ما يبذل من جهد .

فكل المطلوب ألاَّ تمُرَّ على آيات الله وأنت مُعرِض عنها ؛ بل على الإنسان أن يُقبل إقبال الدارس ، إما لتنتهى إلى قضية إيمانية تُثرى حياتك ؛ وتعطيك حياة لا نهايةَ لها ، وهى حياة الآخرة ، أو تُسعد حياتك وحياة غيرك ، بأن تبتكر أشياء تفيدك ، وتفيد البشرية .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

وهكذا نرى المصافى التى يمر بها البشر ليصلوا إلى الإيمان .

المصفى الأول : قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يوسف]

أى : أن الكثير من الناس لن يَصلوا إلى الإيمان ، حتى ولو حرص الرسول ﷺ أن يكونوا مؤمنين .

وقلنا : إن مقابل « كثير » قد يكون « قليل » ، وقد يكون « كثير » ، وبعض المؤمنين قد يشوب إيمانهم شبهةٌ من الشرك ، صحيح أنهم مؤمنون بالإله الواحد ، ولكن إيمانهم ليس يقينياً ، بل إيمان متذبذب ، ويُشركون به غيره .

والمصفى الثانى : قوله تعالى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ [يوسف]

ومثال هذا : كفار قريش الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

ويقول فيهم أيضاً :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.. (٢٥) ﴾ [لقمان]

ورغم قولهم هذا إلا أنهم جعلوا شفعاء لهم عند الله ، وقالوا : إن الملائكة بنات الله ، وهكذا جعلوا لله شركاء . ومعهم كل مَنْ ادعى أن لله ابناً من أهل الكتاب .

وأيضاً مع هؤلاء يوجد بعض من المسلمين الذين يخصُّون قوماً أقوياء بالخضوع لهم خضوعاً لا يمكن أن يُسمَّى فى العرف مودة ؛ لأنه تَقرُّب ممتلىء بالذلة ؛ لأنهم يعتقدون أن لهم تأثيراً فى النفع والضر ؛ وفى هذا لون من الشرك .

ويأتى الواحد من هؤلاء ليقول لِمَنْ يتقرب منه : أرجو أن تقضى لى الأمر الفلانى . ويرد صاحب النفوذ : اعتمد على الله ، وإن شاء الله سيقضى الله لك حاجتك .

لكن صاحب الطلب يتمادى فى الذِّلة ، ليقول : وأنا أعتمد عليك أيضاً ، لتقضى لى هذه الحاجة .

أو يرد صاحب النفوذ ويقول : أنا سوف أفعل لك الشىء الفلانى ؛ والباقى على الله .

وحين أسمع ذلك فأنا أتساءل : وماذا عن الذى ليس باقياً ، أليس على الله أيضاً ؟

وينثر الله حكَماً فى أشياء تمنَّاها أصحابها ؛ فقُضيتْ ؛ ثم تبين أن فيها شراً ، وهناك أشياء تمناها أصحابها ؛ فلم تُقْضَ ؛ ثم تبين أن عدم قضائها كان فيه الخير كل الخير .

نجد الأثر يقول :

وَاطلبُوا الأشياءَ بِعزَّةِ الأنفسِ فَإنَّ الأُمورَ تَجْرِى بِمقَادِير

وربما منعك هذا فكرهته ، وكان المنع لك خيراً من قضائه لك ، فإن المنع عَيْن العطاء ، ولذلك فعلى الإنسان أن يعرف دائماً أن الله هو الفاعل ، وهو المسبب ، وأن السبب شىء آخر .

ودائماً أذكّر بأننا حين نحجُّ أو نعتمر نسعى بين الصفا[1] والمروة

---

(١) الصفا والمروة : جبلان بين بطحاء مكة والمسجد . وأصل الصفا العريض من الحجارة الأملس. [لسان العرب ـ مادة : صفا] . والمروة : الحجر الأبيض الهشُّ البراق . ومروة المسعى التى تُذكر مع الصفا ، وهى أحد رأسيْه اللذين ينتهى السعى إليهما سميت بذلك . [لسان العرب ـ مادة : صفا] .

لنتذكر ما فعلتْه سيدتنا هاجر التى سَعَتْ بين الصفا والمروة ؛ لتطلب الماء لوليدها بعد استنفدت أسبابها ؛ ثم وجدت الماء تحت رِجْل وليدها إسماعيل .

فقد أخذتْ هى بالأسباب ، فجاء لها رَبُّ الأسباب بما سألتْ عنه . ولم يَأْتِ لها الحقُّ سبحانه بالماء فى جهة الصفا أو المروة ؛ ليثبت لها القضية الأولى التى سألت عنها إبراهيم عليه السلام حين أنزلها فى هذا المكان .

فقد قالت له : ءأنزلتنا هنا برأيك ؟ أم أن الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم أمرنى ربِّى . قالت : إذن لا يضيعنا[1] .

وقد سَعَتْ هى بحثاً عن الماء أخذاً بالأسباب ، وعثرتْ على الماء بقدرة المسبِّب الأعلى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ [يوسف]

يتطلب منا أن نعرف كيف يتسرَّب الشرك إلى الإيمان ، ولنا أن نتساءل : ما دام يوجد الإيمان ؛ فمن أين تأتى لحظة الشرك ؟

ويشرح الحق سبحانه لنا ذلك حين يقول :

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ[2] دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٠٧) ، وحينئذ استقبل إبراهيم عليه السلام القبلة ، ثم دعا فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم] .

(٢) الفلك : السفينة . للمذكر والمؤنث ، وللواحد وللجمع . [القاموس القويم ٢/٨٩] .

الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)﴾ [العنكبوت]

هم إذن قد آمنوا وهم فى الفُلْك ، وأخذوا يدعُون الله حين واجهتهم أزمة فى البحر[1] ؛ لكنهم ما أن وصلوا إلى الشاطيء حتى ظهر بينهم الشرك .

حين يسألهم السائل : ماذا حدث ؟

فيجيبون : أنهم كانوا قد أخذوا حذرهم ، واستعدوا بقوارب النجاة . ونَسَوْا أن الله هو الذى أنقذهم فانطبق عليهم قول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾ [إبراهيم]

وفى حياتنا اليومية قد تذهب لتقضى حاجة لإنسان ؛ وبعد أن يُسَهِّل لك الله قضاء تلك الحاجة ؛ تلتفت فلا تجده ، ولا يفكر فى أن يُوجِّه لك كلمة الشكر .

وحين تلقاه يقول لك : كل ما طلبته منك وجدته مقضياً ، لقد كلَّمْتُ فلاناً فقضاها .

---

(١) يقول الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. (٢٣)﴾ [يونس] .

وهو يقول لك ذلك ليُبعد عنك ما أسبغه الله عليك من فضل قضائك لحاجته ؛ وذلك لأنه لحظة أن طلب منك مساعدته في قضاء تلك الحاجة تذلَّل وخضع ، وبعد أن تنقضي يتصرف كفرعون ويتناسى .

ولا ينزعه من فرعنته إلا رؤياك ؛ لأنه يعلم أنك صاحب جميل عليه ، بل قد يريد بك الشر ؛ رغم أنك أنت مَنْ أحسنتَ إليه ، لماذا ؟ لأن هذه هي طبيعة الإنسان .

يقول تعالى :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝ ﴾ [العلق]

ولذلك يُقال في المثل : « اتَّقِ شَرَّ من أحسنت إليه » .

وأنت تتقى شره ، بأن تحذر أن تَمُنَّ عليه بالإحسان ؛ كي لا تنمى فيه غريزة الكره لك .

والناصح يحتسب أيَّ مساعدة منه لغيره عند الله ؛ فيأخذ جزاءه من خالقه لحظة أداء فعل الخير ، ولا ينتظر شيئاً ممَّنْ فعل الخير له ؛ لأنك لا تعلم ماذا فكَّر لحظة أن أدَّيْتَ له الخدمة ، فحين يجد ترحيبَ الناس بك في الجهة التي تُؤدِّى له الخدمة فيها ؛ قد يتساءل : لماذا يحترمونك أكثر منه ؟

وهو يسأل هذا السؤال لنفسه على الرغم من أنك مُتواجِد معه في هذا المكان لتخدمه .

ولذلك يقول العامة هذا المثل : « اعمل الخير وارْمه في البحر » ؛

لأن الله هو الذى يجازيك وليس البشر ؛ فاجعل كل عملك مُوجَّهاً لله ، وانْسَ أنك فعلْتَ معروفاً لأحد .

والمعروف المنكُور هو أجْدى أنواع المعروف عليك ؛ لأن الذى يُجازِى عليه هو الله ؛ وهو سبحانه مَنْ سيناولك أجره وثوابه بيده ؛ ولذلك عليك أن تنسى مَنْ أحسنتَ إليه ؛ كى يُعوِّضك الله بالخير على ما فعلت .

ويُقال فى الأثر : إن موسى عليه السلام قال : يا ربِّ ، إنى أسألك ألاَّ يُقال فيَّ ما ليس فيَّ . فأوضح له الله : يا موسى لم أصنعها لنفسى ؛ فكيف أصنعها لك .

ويعرض الحق سبحانه هذه المسألة فى القرآن بشكل آخر ، فيقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا[1] إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ[2] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) ﴾ [الزمر]

والإنسان لحظةَ أن يمسَّه الضُّر ؛ فهو يدعو الربوبية المتكفِّلة بمصالحه : يا ربِّ أنت الذى خلقتنى ، وأنت المتكفِّل بتربيتى ؛ وأنا

(١) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه وتاب وترك الذنوب . قال تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) ﴾ [الشورى] أى : إليه أتوب وأرجع . ومنيب اسم فاعل . وجاء جمع منيب فى قوله : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ .. (٣١) ﴾ [الروم] أى : راجعين إلى الله تائبين إليه . أى : كونوا تائبين وكونوا متقين . [القاموس القويم ٢/ ٢٩٠] .

(٢) خوله : ملَّكه إياه متفضلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١/ ٢١٤] .

أتوكل عليك فى مصالحى ، فأنقذنى ممَّا أنا فيه .

ومثل هذا الإنسان كمثل الرُّبان الذى ينقذه الله بأعجوبة من العاصفة ؛ لكنه بعد النجاة يحاول أن ينسب نجاة السفينة من الغرق لنفسه .

ولذلك أقول دائماً : احذروا أيها المؤمنون أن تنسَوْا المُنعم المُسبِّب فى كل شىء ، وإياكم أن تُفْتنوا بالأسباب ؛ فتغفلوا عن المُسبِّب ؛ وهو سبحانه مُعْطى الأسباب .

وأقول ذلك حتى لا تقعوا فى ظلم أنفسكم بالشرك بالله ؛ فسبحانه القائل :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا[1] إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ [الأنعام]

والظلم - كما نعلم - هو أن تُعطِى الحق لغير صاحبه ؛ فكيف يَجْرؤ أحد على أن يتجاهل فَضْل الله عليه ؟ فيقع فى الشرك الخفى ، والظلم الأكبر هو الشرك .

وسبحانه القائل :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أى : لم يخلطوا إيمانهم بشرك ، وهو الظلم العظيم ، ولا بأى نوع من الظلم . [القاموس القويم ٢/١٨٨] .

﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ(١) مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً(٢) وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

ألم يحسب هؤلاء حساب انتقام الله منهم بعذاب الدنيا الذى يَعُمُّ ؛ لأن الغاشية هى العقاب الذى يَعُمُّ ويُغطِّى الجميع ؛ أم أنهم استبطئوا الموت ، واستبطئوا القيامة وعذابها ؛ رغم أن الموت مُعلَّق على رقاب الجميع ، ولا أحد يعلم ميعاد موته .

فالرسول ﷺ يقول : « من مات قامت قيامته »(٣) .

فما الذى يُبطئهم عن الإيمان بالله والإخلاص التوحيدى لله ، بدون أنْ يمسَّهم شرك ؛ قبل أن تقوم قيامتهم بغتةً ؛ أى : بدون جرس تمهيدى .

ونعلم أن مَنْ سبقونا إلى الموت لا يطول عليهم الإحساس بالزمن إلى أن تقومَ قيامة كُلِّ الخَلْق ؛ لأن الزمن لا يطول إلا على مُتتبع أحداثه .

والنائم مثلاً لا يعرف كَمْ ساعةً قد نام ؛ لأن وَعْيه مفقود فلا

---

(١) قال مجاهد : عذاب يغشاهم. وقال قتادة : وقيعة تقع لهم . وقال الضحاك : يعنى الصواعق والقوارع . [تفسير القرطبى ٥ / ٣٦٠٨] .

(٢) بغته - بغتاً وبغتة : فاجأه على غرة وغفلة . قال تعالى : ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف] .

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : «أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنًى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم ، الموت القيامة » .

يعرف الزمن ، والذى يوضح لنا أن الذين سبقونا لا يشعرون بمرور الزمن هو قوله الحق :

﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها (٤٦) ﴾ [النازعات]

ويأتى قول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ(١) أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾

أى : قُلْ يا محمد هذا هو منهجى . والسبيل كما نعلم هو الطريق ، وقوله الحق :

﴿ هَٰذه سبيلى ..(١٠٨) ﴾ [يوسف]

يدلُّ على أن كلمة السبيل تأتى مرة مُؤنَّثة ، كما فى هذه الآية ، وتأتى مرة مُذكَّرة ؛ كما فى قوله الحق :

﴿ وإن يروا سبيل الرُّشْد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي(٢) يتخذوه سبيلاً .. (١٤٦) ﴾ [الأعراف]

وأعْلِنْ يا محمد أن هذه الدعوة التى جئْتَ بها هى للإيمان بالله الواحد ؛ وسبحانه لا ينتفع بالمنهج الذى نزل عليك ليُطبِّقه العباد ، بل

---

(١) البصيرة : نور القلب الذى يرى به حقائق الأمور ، وهى أيضا ما يبصره القلب من الحق الواضح . والبصيرة : البيان الواضح والحجة المقنعة والطريقة البينة التى لا لَبْس فيها ولا غموض . [القاموس القويم ١ / ٧٠] بتصرف .

(٢) الغَيُّ : الفساد والضلال والخيبة . والغواية : الانهماك فى الغَىّ . [لسان العرب ـ مادة : غوى] .

فيه صلاح حياتهم ، وسبحانه هو الله ؛ فهو الأول قبل كل شيء بلا بداية ، والباقي بعد كل موجود بلا نهاية ؛ ومع خَلْق الخَلْق الذين آمنوا هو الله ؛ وإن كفروا جميعاً هو الله ، والمسألة التكليفية بالمنهج عائدة إليكم أنتم ، فمَنْ شاء فَلْيؤمن ، ومَنْ شاء فَلْيكفر .

ولنقرأ قوله الحق:

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ[1] لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[2] ۝٢ ﴾ [الانشقاق]

فهي تنشقُّ فَوْرَ سماعها لأمر الله ، وتأتي لحظة الحساب .

وقوله الحق :

﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ .. ۝١٠٨ ﴾ [يوسف]

أي : أدعو بالطريق المُوصِّل إلى الله إيماناً به وتَقَبُّلاً لمنهجه ، وطلباً لما عنده من جزاء الآخرة ؛ وأنا على بصيرة مما أدعو إليه .

والبصر ـ كما نعلم ـ للمُحسَّات ، والبصيرة للمعنويات .

والبصر الحسيُّ لا يُؤدِّي نفس عمل البصيرة ؛ لأن البصيرة هي يقينٌ مصحوبٌ بنور يُقنِع النفس البشرية ، وإنْ لم تَكُنْ الأمور الظاهرة مُلجئة إلى الإقناع .

ومثال هذا : أم موسى حين أوحى الله لها أن تقذف ابنها في

---

(١) أذنت : استمعت لأمر ربها واستجابت وأطاعت وخضعت راضية . [القاموس القويم ١٦/١] .

(٢) حق الأمر يحق : ثبت ووجب . وحقّ له : ثبت له . وحُقَّ له بالبناء للمجهول أثبت له . قال تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ ﴾ [الانشقاق] أي : كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم ١٦٤/١] .

اليمِّ ، ولو قاستْ هي هذا الأمر بعقلها لما قَبِلَتْه ، لكنها بالبصيرة قَبِلَتْه ؛ لأنه وارد من الله لا مُعاندَ له من النفس البشرية .

فالبصيرة إذن : هي يقين ونور مبنى على برهان من القلب ؛ فيطيعه العبد طاعة بتفويض ، ويُقال : إن الإيمان طاعة بصيرة .

ويمكن أن نقرأ قوله الحق :

﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ .. (١٠٨)﴾ [يوسف]

وهنا جملة كاملة ؛ ونقرأ بعدها :

﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ..(١٠٨)﴾ [يوسف]

أو نقرأها كاملة :

﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾ [يوسف]

وقول الحق :

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ .. (١٠٨)﴾ [يوسف]

أي : أنه سبحانه مُنزَّه تنزيهاً مطلقاً في الذات ، فلا ذاتَ تُشبهه ؛ فذاته ليست محصورة في القالب المادي مثلك ، والمنفوخة فيه الروح ، وسبحانه مُنزَّه تنزيهاً مُطْلقاً في الأفعال ، فلا فعلَ يشبه فعله ؛ وكذلك صفاته ليست كصفات البشر ، فحين تعلم أن الله يسمع ويرى ، فخُذْ ذلك في نطاق :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

وكذلك وجوده سبحانه ليس كوجودك ؛ لأن وجوده وجود واجد أزلىّ ، وأنت حَدَثٌ طارىء على الكون الذى خلقه سبحانه .

ولذلك قاس بعض الناس رحلة الإسراء[١] والمعراج[٢] على قدرة رسول الله ﷺ ؛ ولم ينتبهوا إلى أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أُسرِى بى »[٣].

ونزل قول الحق سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ① ﴾[الإسراء]

وهكذا تعلم أن الفعل لم يكن بقوة محمد ﷺ ؛ ولكن بقوة مَنْ خلقَ الكون كله ، القادر على كل شىء ، والذى لا يُمكن لمؤمن حقٍّ أن يشرك به ، أمام هذا البرهان .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٠٩ ﴾

(١) سرى يسرى : سار ليلاً . وأسرى به : جعله يسرى ، أو حمله معه على السير ليلاً ، وهذا يُشعر أن الله تعالى كان رفيقاً للرسول ومعيناً له فى إسرائه [القاموس القويم ١/ ٣١٢] .

(٢) عرج يعرج عروجاً : صعد وعلا وارتفع ، والمعراج : كل ما ساعدك على الصعود ، والجمع : معارج . [القاموس القويم ٢/ ١٢] .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ، ومسلم فىّ صحيحه (١٧٠) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

وينتقل الحق سبحانه هنا إلى الرسل الذين سبقوا محمداً ﷺ ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : أنهم كانوا يطلبون رسولاً من غير البشر ، وتلك مسألة لم تحدث من قبل ، ولو كانت قد حدثتْ من قَبْل ؛ لقالوا : « ولماذا فعلها الله مع غيرنا ؟ » .

ولذلك أراد سبحانه أن يَرُدَّ لهم عقولهم ؛ فقال تعالى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء]

والملائكة بطبيعتها لا تستطيع أن تحيا على الأرض ، كما أنها لا تصلح لأنْ تكون قُدْوة أو أُسْوة سلوكية للبشر .

فالحق سبحانه يقول عن الملائكة :

﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]

والملاك لا يصلح أن يكون أُسْوة للإنسان ؛ لأن المَلَك مخلوق غيبىّ غير مُحَسٍّ من البشر ؛ ولو أراده الله رسولاً لَجسَّده بشراً ؛ ولو جعله بشراً لبقيتْ الشبهةُ قائمةً كما هى .

أو : أن الآية جاءت لِتسُدَّ على الناس ذرائع[1] انفتحت بعد ذلك

(١) الذريعة : الوسيلة . وقد تذرع فلان بذريعة ، أى : توسل . والجمع : الذرائع . والذريعة : السبب إلى الشىء . يقال : فلان ذريعتى إليك ، أى : سببى ووُصْلتى الذى أتسبب به إليك . [لسان العرب ـ مادة : ذرع] .

على الناس فى حروب الرِّدة حين ادَّعَتْ سجاح أنها نبية مُرْسَلة .

لذلك جاء الحق سبحانه من البداية بالقول :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

ليوضح لنا أن المرأة لا تكون رسولاً منه سبحانه ؛ لأن مهمة الرسول أن يلتحم بالعالم التحامَ بلاغٍ ، والمرأة مطلوب منها أن تكون سَكناً .

كما أن الرسول يُفترض فيه ألاَّ يسقط عنه تكليف تعبدىّ فى أى وقت من الأوقات ؛ والمرأة يسقط عنها التكليف التعبدى أثناء الطمث[1] ، ومهمة الرسول تقتضى أن يكون مُسْتوفى الأداء التكليفى فى أىِّ وقتٍ .

ثم كيف يطلبون ذلك ولَمْ تَأْتِ فى مهام الرسل من قبل ذلك إلا رجالاً ، ولم يسأل الحق أيّاً منهم ، ولم يستأذن من أىِّ واحد من الرسل السابقين ليتولى مهمته ؛ بل تلقَّى التكليف من الله دون اختيار منه ، ويتلقى ما يُؤمر أن يُبلِّغه للناس ،ويكون الأمر بواسطة الوحى .

والوحى كما نعلم إعلام بخفاء ، ولا ينصرف على إطلاقه إلا للبلاغ عن الله . ولم يوجد رسول مُفوَّض ليبلغ ما يحب أو يُشرِّع ؛ لكن كل رسول مُكلَّف بأن ينقل ما يُبلِّغ به ، إلا محمد ﷺ ، فقد فوَّضه الحق سبحانه فى أن يُشرِّع ، ونزل فى القرآن:

﴿ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

---

(١) طمثت المرأة تطمث : حاضت . والطمث : الدم والنكاح . [لسان العرب ـ مادة : طمث] .

ويقول الحق سبحانه عن هؤلاء الرسل السابقين أنهم :

﴿ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يوسف]

والقرية كانت تأخذ نفس مكانة المدينة فى عالمنا المعاصر . وأنت حين تزور أهل المدينة تجد عندهم الخير عكس أهل البادية ، فالبدوىّ من هؤلاء قد لا يجد ما يُقدِّمه لك ، فقد يكون ضرع الماشية قد جَفَّ ؛ أو لا يجد ما يذبحه لك من الأغنام .

والفارق بين أهل القرية وأهل البادية أن أهل القرية لهم توطُّن ؛ ويملكون قدرة التعايش مع الغير ، وترتبط مصالحهم ببعضهم البعض ، وترِقُّ حاشية[1] كل منهم للآخر ، وتتسع مداركهم بمعارف متعددة ، وليس فيهم غِلْظة أهل البادية .

فالبدوىُّ من هؤلاء لا يملك إلا الرَّحْل على ظهر جَمله ؛ ويطلب مساقط المياه ، وأماكن الكلأ[2] لما يرعاه من أغنام .

وهكذا تكون فى أهل القرى رِقَّة وعِلْم وأدبُ تناول وتعامل ؛ ولذلك لم يَأْت رسول من البدو كى لا تكون معلوماته قاصرةً ، ويكون جافاً ، به غِلْظة قوْلٍ وسلوك .

والرسول يُفترض فيه أن يستقبل كل مَنْ يلتقى به بالرِّفق واللِّين وحُسْن المعاشرة ؛ لذلك يكون من أهل القرى غالباً ؛ لأنهم ليسوا قُسَاة ؛ وليسوا على جهل بأمور التعايش الاجتماعى .

---

(١) الحاشية : الجانب والناحية . أى : أنه يكون مهذباً دمث الطباع ، حسن السمت ، لين الجانب ، سليم الطوية .

(٢) الكلأ : العُشْب والبَقْل . وقيل : هو العشب رَطْبه ويابسُه . [لسان العرب - مادة : كلأ] .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم إنْ كانوا غير مؤمنين بآخرة يعودون إليها ؛ ولا يعلمون متى يعودون ؛ فليأخذوا الدنيا مقْياساً ؛ ولْينظروا فى رُقْعة الأرض ؛ وينظروا ماذا حدث للمُكذّبين بالرسل ، إنهم سيجدون أن الهلاك والعذاب قد حاقا[1] بكل مُكذّب .

ولو أنهم ساروا فى الأرض ونظروا نظرة اعتبار ، لرأوا قُرَى مَنْ نحتوا بيوتهم فى الجبال[2] وقد عصف بها الحق سبحانه ، ولَرأوْا أن الحق قد صَبَّ سَوْط العذاب على قوم عاد وآل فرعون ، فإن لم تَخَفْ من الآخرة ؛ فعليك بالخوف من عذاب الدنيا .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

وهذا القول هو من لَفَتات الكَونيّات فى القرآن ، فقديماً كنا لا نعرف أن هناك غلافاً جوياً يحيط بالأرض ، ولم نَكُنْ نعرف أن هذا الغلاف الجوى به الأكسوجين الذى نحتاجه للتنفس .

ولم نَكُنْ نعرف أن هذا الغلاف الجوى من ضمن تمام الأرض ،

---

(١) حاق به الشىء يحيق : نزل به وأحاط به . وأحاقه الله به : أنزله . وقيل : حاق بهم العذاب أى أحاط بهم ونزل كأنه وجب عليهم . [لسان العرب ـ مادة : حيق] .

(٢) هؤلاء هم أصحاب الحجر ، قال عنهم رب العزة : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) ﴾ [الحجر] .

وأنك حين تسير على اليابسة ، فالغلاف الجوى يكون فوقك ؛ وبذلك فأنت تسير فى الأرض ؛ لأن ما فوقك من غلاف جوى هو من مُلْحقات الأرض .

والسَّيْر فى الأرض هو للسياحة فيها ، والسياحة فى الأرض نوعان : سياحة اعتبار ، وسياحة استثمار .

ويُعبِّر الحق سبحانه عن سياحة الاعتبار بقوله :

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٩) ﴾ [الروم]

ويُعبِّر سبحانه عن سياحة الاستثمار بقوله :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ .. (٢٠) ﴾ [العنكبوت]

إذن : فسياحة الاعتبار هى التى تَلْفتك لقدرة الله سبحانه ، وسياحة الاستثمار هى من عمارة الأرض ، يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

وأنت مُكلَّف بهذه المهمة ، بل إن ضاق عليك مكان فى الأرض فابحث عن مكان آخر ، بحسب قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧) ﴾ [النساء]

ولك أن تستثمر كما تريد ، شرطَ ألاَّ يُلهيك الاستثمار عن الاعتبار .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

ويا لَيْتَ الأمر قد اقتصر على النكال[1] الذى حدث لهم فى الدنيا ؛ بل هناك نَكَالٌ أشدُّ وَطْأة فى انتظارهم فى الآخرة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾ [يوسف]

وحديث الحق سبحانه عن مصير الذين كَذَّبوا ؛ يَظهر لنا كمقابل لما ينتظر المؤمنين ، ولم تذكر الآية مصير هؤلاء المُكذِّبين بالتعبير المباشر ، ويُسمُّون ذلك فى اللغة بالاحتباك[2] .

مثل ذلك قوله الحق :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد]

وكل يوم تنقص أرض الكفر ، وتزيد رقعة الإيمان .

وهكذا يأتى العقاب من جانب الله ، ونأخذ المقابل له فى الدنيا ؛ ومرة يأتى بالثواب المقيم للمؤمنين ، ونأخذ المقابل فى الآخرة .

ولقائل أن يقول : ولماذا لم يَقُل الحق سبحانه أنه سوف يأتى لهم بما هو أشدّ شراً من عذاب الدنيا فى اليوم الآخر ؟

---

(١) النكال : التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة. قال تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ .. (٣٨) ﴾ [المائدة] أى : عقوبة زاجرة فرضها الله ليتعظ بها الناس. [القاموس القويم ٢ / ٢٨٨] .

(٢) هو نوع من أنواع الحذف ، قال السيوطى : « هو من ألطف الأنواع وأبدعها ، وقلَّ من تنبه له أو نبَّه عليه من أهل فن البلاغة ، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى ، ومن الثانى ما أثبت نظيره فى الأول ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ .. (١٧١) ﴾ [البقرة]. التقدير : ومثل الأنبياء والكفار كمثل الذى ينعق ، والذى يُنعَق به ، فحذف من الأول الأنبياء لدلالة « الذى ينعق » عليه ، ومن الثانى الذى يُنعق به لدلالة « الذين كفروا » عليه » [الإتقان فى علوم القرآن ٣/١٨٢] .